هذا الملف

معروفٌ أنّ الشريفَ الرضيّ قد رتّب (نهج البلاغة) على أقسامٍ ثلاثة: (خُطَب، ورسائل، وقصار الكلمات). ومن رسائل (نهج البلاغة) التي تعدّ منهجاً في السياسة التربوية - خصوصاً لمن يتولّون مواقع المسؤولية الخطيرة على الرعيّة باسم الإسلام المحمديّ الأصيل - رسالةُ أمير المؤمنين عليه السلام أو كتابه لعثمان بن حُنيف الأنصاريّ؛ واليه على البصرة، وهو الكتاب الخامس والأربعون.

في هذا الملف سنُضيء على هذه الوثيقة العلويّة نَصّاً ومضموناً، لغةً وتحليلاً، عبر أقطاب شرّاح (نهج البلاغة)؛ حيث يعالج كلٌّ منهم من موقعه العلمي واتّجاهه السلوكي، إحدى أبرز الوثائق الأخلاقية في شؤون الحكم والإدارة، خصوصاً لناحية ما يجب على الوالي في منظومة الحكم الاسلامي، وفي مدرسة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾ الأحزاب:٢١.

نَصُّ الكتاب

قال الشريف الرّضيّ في (نهج البلاغة): «ومن كتابٍ له عليه السّلام إلى عُثمان بن حنيف الأنصاريّ، وكان عاملَه على البصرة، وقد بلغَه أنه دُعِيَ إلى وليمة قومٍ من أهلها، فمَضى إليها، قوله:

أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ، فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ [وَجْهِهِ] وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ. فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ. بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ! وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ. وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ؟ فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا؛ تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ. وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً وَأَبْطَأُ خُمُوداً. وَأَنَا مِنْ رَسُولِ

اللهِ كَالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ، وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

وَمِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ آخِرُهُ:

إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ. أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ؟ أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ؟ فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ. وَاللهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِيّاً وَقَالَباً حِسِّيّاً لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ اللهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيِّ وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ.

هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ. وَالسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلَاخُهُ. اعْزُبِي عَنِّي، فَوَاللهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَأَيْمُ اللهِ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا؛ مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا.

أَتَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ؟! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ.

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ﴿..أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة:٢٢، فَاتَّقِ اللهَ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ».

شرح مفردات الكتاب

العائل: الفقير.

الجفاء: نقيضُ الصِّلة. **القَضْم**: الأكل بأطراف الأسنان، وظاهر كلامه عليه السّلام أنّ النّهي عن إجابة مثل هذه الدّعوة من وجهَين: أحدهما أنّه من طعامِ قومٍ عائلُهم مَجفوّ وغنيّهم مدعوّ، فهم من أهل الرّثاء والسّمعة، فالأحرى عدم إجابتهم. وثانيهما أنّه مظنّة المحرمّات، فيمكن أن يكون النّهي عاماً على الكراهة أو خاصّاً بالولاء، فيحتمل أن يكون النّهي للتّحريم، ويمكن أن يستفاد من قوله: «**تُستَطابُ لك الألوان**» وجه آخر من النّهي، وهو المنع من إجابة دعوة المسرفين والمبذّرين، ويحتمل أيضاً الكراهة والتّحريم والعموم والخصوص.

الطِّمر بالكسر: الثّوب الخَلِق، **والطِّمران**: الإزار والرّداء.

المبطان: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل.

الغرث: الجوع.

الحرّى: العطشى.

البطنة: أن يمتلئ من الطّعام امتلاءً شديداً.

القِدّ بالكسر: سَيْرٌ يُقَدّ من جلد غير مدبوغ.

طعام جشيب: أي غليظ.

قوله: «**كالبهيمة**» هذا تشبيهٌ للأغنياء لاهتمامهم بالتّلذّذ بما يحضر عندهم.

قوله: «**أو المرسَلة**» تشبيهٌ للفقراء الذين يحصلون من كلّ وجه ما يتلذّذون به، وليس همّتهم إلّا ذلك.

التّقمّم: أكلُ الشّاة ما بين يدَيها بمقمّتها أي بشفتيها.

قوله عليه السّلام: «**تكترش**» أي تملأ بها كرشها، وهو لكلّ مجترّ بمنزلة المعدة للإنسان.

قوله عليه السّلام: «**عمّا يُراد بها**» أي من الذّبح والاستخدام.

المتاهة: محل التّيه وهو الضّلال.

قوله عليه السّلام: «**والرّواتع**» أي الأشجار الرّاتعة، من قولهم: رتع رتوعاً: أكل وشرب ما شاء في خصب.

العذِيّ بالكسر: الزّرع لا يسقيه إلّا ماء المطر.

الصّنو بالكسر: المِثل، وأصله أن تطلع النّخلتان من عرق واحد.

قوله عليه السّلام: «**والذّراع من العضُد**» وجه التّشبيه أنّ العَضد أصلٌ للذّراع، والذّراع وسيلة إلى التّصرّف بالعَضُد.

الرّكس: ردّ الشّيء مقلوباً. وقال ابن ميثم: «سُمّي معاوية معكوساً لانعكاس عضدَيه، ومركوساً لكونه تاركاً للفطرة الأصليّة».

الغارب: ما بين السّنام والعنق، وأصله أنّ النّاقة إذا رعتْ وعليها الخطام أُلقي على غاربها، لأنّها إذا رأت الخطام لا يهنّئها شيء.

المداحض: المزالق. **الحبائل**: المصائد.

المداعب: من الدّعابة وهي المزاح.

الزّخرف: الذّهب وكمال حسن الشّيء.

المهوى والمهواة: ما بين الجبلَين.

الصّدَر بالتّحريك: الرّجوع عن الماء خلاف الورود.

ازوَرّ عنه: عدل وانحرف.

ضِيق المناخ: كناية عن شدائد الدّنيا كالفقر والمرض والحبوس والسّجون.

الرّبيضة: جماعة من البقر والغنم. وربوض الغنم والبقر والفرس والكلب مثل بروك الإبل.

الهجوع: النّوم ليلاً.

الهمل: بالتّحريك الإبل بلا راعٍ.

قوله: «**وعَركتْ بجنبِها**» يقال: يعرك الأذى بجنبه أي يحتمله. ويقال: ما اكتحلتُ غمضاً أي ما نمت. **والكَرى**: النّعاس.

قوله عليه السّلام: «**وتقشّعت**» أي زالت وذهبت كما يتقشّع السحاب.

(بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ: ج ٤٠، ص ٣٤٣ – ٣٤٥)

من هو عثمان بن حُنيف

«عثمان بن حُنيف، بضمّ الحاء، ابن واهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ الأوسيّ أخو سهل بن حنيف أحد الأمجاد من الأنصار، أخذ من النّبيّ صلّى الله عليه وآله العلم والتّربية وبلغ الدّرجة العالية فنال مناصب كبرى، قال في (الشّرح المعتزليّ): «عمل لعمر ثمّ لعليٍّ عليه السلام، وولّاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرب الخراج والجزية على أهلها، وولّاه عليّ عليه السّلام على البصرة، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها». ويظهر من ذلك أنّه كان رجلاً بارعاً في علم الاقتصاد والسّياسة معاً، فاستفاد منه عمر من النّاحية الاقتصاديّة وفوّض إليه أمر الخراج والجزية وهو من أهمّ الأمور في هذا العصر، وخصوصاً في أرض العراق العامرة، وكان من خواصّ عليّ عليه السّلام ومن السّابقين الَّذين رجعوا إليه وأخلصوا له، قال في (الرّجال الكبير) بعد ترجمته: «هو من السّابقين الَّذين رجعوا إلى أمير المؤمنين عليه السّلام، قاله الفضل بن شاذان». وكلمة السّابقين في وصفه مأخوذة من قوله تعالى في سورة البراءة الآية ١٠٠: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. وكفى له بذلك مدحاً وإخلاصاً له عليه السّلام، فإنّ الآية تخصّص السّابقين الأوّلين من الأنصار والمهاجرين بهذه الفضيلة الَّتي لا فضيلة فوقها، والسّبق والتّقدّم إنّما هو بقبول ولاية أمير المؤمنين، فإنّها ميزان الإيمان والإخلاص لله ورسوله، ودليل البراءة من النّفاق والمطامع الدّنيويّة.

ومؤاخذته عليه السّلام بمجرّد إجابة دعوة من بعض فتيان البصرة، وتشديده في توبيخه بهذه الجمل البالغة في الطّعن والمذمّة دليل آخر على علوّ رتبته وسموّ درجة إيمانه وأنّه لا ينبغي لَمن مثله إجابة مثل تلك الدّعوة، والاشتراك في حفلة ضيافة تُعقد لكسب الشّهرة، أو جلب المنفعة، أو الانهماك في اللّذّة والغفلة، أو الاستمتاع بالأغذية اللّذيذة. فظاهر الكتاب الموجّه إلى عثمان بن حنيف بالعتاب توبيخ عنيف على ارتكابه خلافاً عظيماً يستحقّ به هذا التّوبيخ الشديد الَّذي هو آلم من الضّرب بالسّوط، أو الحبس إلى حين الموت..».

(منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)